

المحاضرة (١١)

وفاة الرسول عليه السلام

بداية المرض : في اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ . وكان يوم الاثنين . شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سَوْرَتَهَا فوق العَصَابَةِ التي تعصب بها رأسه.

وقد صلي النبي صلى الله عليه وسلم بالناس وهو مريض ١١ يوماً، وجميع أيام المرض كانت ٣١، أو ٤١ يوماً.

- الأسبوع الأخير

وثقل برسول الله صلى الله عليه وسلم المرض، فجعل يسأل أزواجه: (أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟) ففهم مراده، فأذن له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتها، فقضي عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

- قبل الوفاة بخمسة أيام

وفي يوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اشتدت عليه حرارة بجسمه، فاشتد به الوجع وأغمي، فقال: (هريقوا علي سبع قِرب من آبار شتي، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم)، فأقعدوه في مِحْضَبٍ ، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: (حسبكم، حسبكم).

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفاً ملحفة على منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس، إلي)، فثابوا إليه، فقال: فيما قال: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) . وفي رواية: (قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) . وقال: (لا تتخذوا قبوري وثناً يعبد).

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: (من كنت جلدت له ظَهْرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عَرَضًا فهذا عرضي فليستقد منه).

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقاتلته الأولى في الشحناء وغيرها. فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: (أعطه يا فضل)، ثم أوصي بالأنصار .

– قبل الوفاة بأربعة أيام

وفي يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أوصى ذلك اليوم بثلاث:

أوصي بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب،

وأوصي بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم،

أما الثالث فنسبه الراوي. ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هي: (الصلاة وما ملكت أيمانكم).

والنبي صلى الله عليه وسلم مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم. يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام. وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفاً. ويذكر بعض المؤرخين أنها آخر صلاة صلها الرسول جهرية بمسجده المسجد النبوي

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد. قالت عائشة: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أصلى الناس؟) قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: (ضعوا لي ماء في المِخْضَبِ)، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفاق، فقال: (أصلى الناس؟). ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء. فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام ١٧ صلاة في حياته صلى الله عليه وسلم، وهي صلاة العشاء من يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الإثنين، وخمس عشرة صلاة فيما بينها.

– قبل الوفاة بيوم

وقبل يوم من الوفاة. يوم الأحد. أعتق النبي صلى الله عليه وسلم غلماناً، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل أرسلت عائشة بمصباحها امرأة من النساء وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عُكَّتِكَ السمن، وكانت درعه صلى الله عليه وسلم مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير

وظفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخبير حتى كان يقول: (يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخبير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهَرِي من ذلك السم).

وقد طرح حَمِيصَة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك . وكان هذا آخر ما تكلم وأوصى به الناس: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا . لا يبقين دينان بأرض العرب).

وأوصى الناس فقال: (الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم)، كرر ذلك مراراً.

وبدأ يحتضرفأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحْرِي ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ربيقي وربقه عند موته. وبين يديه رَكْوَة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه، يقول: (لا إله إلا الله، إن للموت سكرات...) الحديث.

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفثاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: (مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى. اللهم، الرفيق الأعلى).

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

– تاريخ الوفاة ووقتها

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحي من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ، وقد تم له صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

– انتشار خبر الوفاة بالمدينة

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتميم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مغشي بثوب حَبْرَة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتَّهَا.

– التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه صلى الله عليه وسلم، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سَقِيفَة بني ساعدة، وأخيراً اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضي في ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان آخر الليل . ليلة الثلاثاء . مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه مغشي بثوب حَبْرَة، قد أغلق دونه الباب أهله.

- تغسيل الجسد الطاهر

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل: العباس وعليّ، والفضل وقثم ابني العباس، وشُقْران مولي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسامة بن زيد، وأوس بن خُوَلي، فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشُقْران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره.

وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسِدْر، وغسل من بئر يقال لها: العَرَس لسعد بن حَيْثَمَة بقباء وكان يشرب منها.

- تكفين الجسد الطاهر

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سَحْوَلِيَّة من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة. أدرجوه فيها إدراجًا.

- موضوع الدفن

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض)، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدًا.

- كيف صلى المسلمون على الرسول

ودخل الناس الحجرة أرسالاً، عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفذاذاً، لا يؤمهم أحد، وصلي عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان.

- وقت دفن الرسول عليه الصلاة والسلام

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بـدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل. وفي رواية: من آخر الليل. ليلة الأربعاء.